بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فقه فى الدين من أراد به خيراً ، ووفقه لصالح العمل وزاده رفعة وقدراً ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين . أما بعد فان الامام المبجل جيلا بعد جيل ، زفر بن الهذيل رضى الله عنه من كبار أئمة الاجتهاد فى الفقه الاسلامى ومن أقدم أصحاب فقيه الملة أبى حنيفة النعمان وفاة ، وأحدهم قياسا ، وأذكاهم فؤاداً ، وأدقهم تفريعا ، وأجودهم نظراً ، حتى تراه يقيم مذهبا فقهياً مقام مذهب فقهى متأصل فى نفوس أهل البصرة ، بأنظاره الدقيقة ، ومناظراته الحكيمة .

فمثل هذا الامام الدقيق النظر ، الواسع القريحة لايجوز إهمال أمره .

ولذا اقترح علىّ بعض إخواننا الأعزاء الأفاضل ، أن أكتب كلمة فى ترجمة هذا الامام العظيم . وقد سبق أن ترجمت للامامين الجليلين محمد بن الحسن وأبى يوسف ــ رضى الله عن الجميع ــ فوافقت على اقتراحه وكتبت هذه الرسالة الوجيزة فى ترجمته ذاكراً فيها موجز أحوال هذا الامام الجليل وسميتها (لمحات النظر فى سيرة الامام زفر) رضى الله عنه ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ومستنهضة لهمم الاخوان ، فى الاستزادة من معرفة أحوال أئمة هذا الشان . ومن الله التوفيق والتسديد .

نسب الامام زفر وميلاده

هو الامام المجتهد المطلق المقدم بين أصحاب أبى حنيفة أبو الهذيل زفر العنبرى البصرى ابن الهذيل بن (زفر بن الهذيل بن) قيس بن سليم بن مكمل بن قيس بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو بن حنجور بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ابن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان على ماساق

ابن خلكان نسبه فى وفيات الأعيان تبعاً للواقدى فى غير مازدته بين قوسين تعويلا على رواية أبى بشر الدولابى كما سيأتى . وفيما ساق أبو نعيم الأصبهانى فى تاريخ اصبهان بعض مخالفة لذلك .

وقد ترجم لزفر أبو الشيخ فى (طبقات المحدثين بأصبهان) ـ وهى محفوظة بظاهرية دمشق ـ وأبو نعيم فى تاريخ أصبهان ـ وهو مطبوع فى ليدن ـ

ولد الامام زفر بن الهذيل فى أصبهان سنة ١١٠ هـ فى عهد ولاية أبيه هناك ، وكانت وفاته بالبصرة سنة ١٥٨ هـ فى شهر شعبان فيما ذكره ابن خلكان فتكون وفاته قبل وفاة المنصور العباسى بأربعة أشهر لأنه توفى فى ٧ ذى الحجة من السنة ، وشذ يعقوب ابن شيبة فقال توفى زفر فى أول خلافة المهدى بن المنصور المذكور ، فتابعه من تابعه لكن الجمهور على الرواية الأولى . وأسند الصيمرى الى يعقوب بن شيبة السدوسى أنه قال : (زفر بن الهذيل عنبرى من أنفسهم يكنى أبا الهذيل ، وكان قد سمع الحديث ونظر فى الرأى فغلب عليه ، ونسب اليه ومات بالبصرة وأوصى الى خالد بن الحارث وعبد الواحد بن زياد وكان أبوه الهذيل يلى الأعمال . ومات وهو والى أصبهان . وكان أخوه صباح بن الهذيل على صدقة بنى تميم . وزفر هو زوج أخت خالد بن الحارث ومات فى أول خلافة المهدى سنة ثمان وخمسين ومائة) . وأول خلافة المهدى منتصف ذى الحجة من السنة بعد وفاة والده أبى جعفر المنصور بمكة سابع ذى الحجة فلا تكون وفاة زفر فى أول خلافة المهدى مادامت وفاته فى شعبان من السنة كما سبق ، وسأعيد الكلام فى وفاته فى آخر هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

قال ابن أبى العوام حدثنى محمد بن احمد بن حماد عن زكريا بن خلاد الساجى ثنا الأصمعى قال داود بن يزيد بن المهلب (١) عن أبيه : (قال جاء زفر بن

---

(١) وفى الأصل حاتم وهذا والد يزيد حفيد المهلب . وصاحب الحكاية هو يزيد بن المهلب مباشرة فوهم فى الاسم أحد الرواة . والحفيد لم يلحق الحجاج بل =

الهذيل الى يزيد بن المهلب وهو فى حبس الحجاج فقال لابنه مخلد : استأذن لى على أبيك ، فاستأذن له عليه فدخل فقال : السلام عليك أيها الأمير قدرك أعظم من أن يستعان عليك أو يستعان بك وقد حملت خمسين حمالة وقدقصدتك . فقال : قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها . فقال زفر : والله لاأقبل منها شيئا . فقال له يزيد : ولم ذلك ؟ قال إنى بذلت لك من وجهى أكثر مما بذلت لى من مالك . فخرج ولم يقبل منه شيئا . قال ابن أبى العوام : قال أبو بشر (الدولابى): زفر بن الهذيل هذا هو جد زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبى حنيفة اه) . والمهالبة فى عهد الدولة الأموية كانوا كالبرامكة فى الدولة العباسية فى الجود وعلو المنزلة ، وحال يزيد بن المهلب فى الجود فى تاريخ ابن خلكان وتاريخ ابن كثير وغيرهما.

وكان ما بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب هذا ساء جداً حتى حبسه الحجاج على خلاف رضا عبد الملك . وهو يجود هذا الجود وهو فى المحبس ؛ وهذا مالا نظير له بين الأجواد . وعدم قبول زفر هذا البذل يدل على شهامته البالغة بعد أن رأى أريحية ابن المهلب هذه . وخالد بن الحارث المذكور فى كلام يعقوب ابن شيبة من بنى العنبر ومن الحفاظ الثقات . وقال أبو نعيم الاصبهانى فى تاريخ اصبهان : (كان الهذيل والد زفر بأصبهان فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبدالملك وكان ينزل قرية بزاءان وكان له ثلاثة بنين : الكوثر وهرثمة وزفر اه) . ولم يستوف أبو نعيم ذكر إخوته كما رأيت . وقد سبق فى كلام يعقوب بن شيبة ذكر صباح بن الهذيل فى عداد إخوة زفر والله أعلم .

اتصال زفر بأبى حنيفة

قال الصيمرى : أخبرنا عبد الله بن محمد الأسدى قال أخبرنا أبو بكر الدامغانى

= المحبوس فى حبس الحجاج هو الابن وقد فر من المحبس وتولى الولاية بدل الحجاج عند وفاته واستعاد منزلته التى كان أضاعها الحجاج (ز) .

الفقيه قال أخبرنا الطحاوى قال أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبى ثور قال أخبرنى محمد بن وهب قال : (كان سبب انتقال زفر الى أبى حنيفة أنه كان من أصحاب الحديث . فنزلت به وبأصحابه مسألة فأعيتهم فأتى أبا حنيفة فسأله عنها . فأجابه فى ذلك فقال له من أين قلت هذا ؟ قال : لحديث كذا وللقياس من جهة كذا . ثم قال له أبو حنيفة : فلو كانت المسألة كذا ما كان الجواب فيها ؟ قال فكنت فيها أعيا منى فى الأول . فقال ـ الجواب فيها كذا من جهة كذا . ثم زادنى مسألة أخرى وأجابنى فيها وبين وجهها . قال : فرحت الى أصحابى فسألتهم عن المسائل ، فكانوا فيها أعمى منى فذكرت لهم الجواب ، وبينت لهم العلل فقالوا من أين لك هذا ؟ فقلت من عند أبى حنيفة . فصرت رأس الحلقة بالثلاث المسائل . ثم انتقل الى أبى حنيفة فكان أحد العشرة الأكابر الذين دونوا الكتب مع أبى حنيفة اه) . وساق ابن فضل الله العمرى فى (مسالك الابصار) هذا الخبر بنصه بطريق الطحاوى .

أقوال أهل العلم فى زفر

قال الصيمرى أخبرنا أبو عبد الله المرزبانى قال حدثنا احمد بن محمد المسكى قال حدثنا ابن أبى خيثمة عن أبى الحسن المدائنى قال : زفر بن الهذيل صاحب أبى حنيفة عنبرى . وقال أيضا : أخبرنا المرزبانى قال حدثنا الحسن بن محمد المخرمى قال حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة قال : سألت أبى وعمى أبا بكر عن زفر ابن الهذيل فقالا : كان زفر من أفقه أهل زمانه قال أبى : وكان أبو نعيم — يعنى الفضل بن دكين — يرفع زفر ويقول كان نبيلا فقيها .

قال وحدثنا أبو الحسن على بن الحسن الرازى قال حدثنا أبو عبد الله الزعفرانى نزيل واسط قال حدثنا احمد بن أبى خيثمة قال حدثنا سليمان بن أبى شيخ قال حدثنى عمرو بن سليمان العطار قال كنت بالكوفة أجالس أبا حنيفة فتزوج زفر

فحضره أبو حنيفة فقال له : تكلم . فخطب فقال فى خطبته : هذا زفر بن الهذيل وهو إمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلام الدين فى حسبه وشرفه وعلمه . فقال بعض قومه : مايسرنا أنَ غير أبى حنيفة خطب حين ذكر خصاله ومدحه ، وكره ذلك بعض قومه وقالوا له ـ حضر بنو عمك وأشراف قومك وتسأل أبا حنيفة أن يخطب ؟ ! فقال لو حضرني ابى لقدمت اباحنيفة عليه اه (١) وكفى فى معرفة منزلة زفر فى الفضل قول ابى حنيفة هذا فيه . وقال الصيمرى حدثنا أبو الحسن العباس بن احمد بن الفضل الهاشمى قال حدثنا احمد بن محمد المسكى قال حدثنا على بن محمد النخعى قال حدثنا ابراهيم بن اسحاق قال حدثنا على بن مدرك عن الحسن بن زياد قال : كان زفر وداود الطائى متواخيين فاما داود الطائى فترك الفقه وأقبل على العبادة وأما زفر فانه جمع الفقه مع العبادة ، ثم ذكر الصيمرى بسنده قدوم زفر البصرة يزور داود الطائى رحمهما الله .

وساق الصيمرى بطريق على بن محمد النخعى عن محمد بن على بن عفان قال حدثنا وليد (٢) بن حماد عن الحسن بن زياد قال : مارأيت أحداً يناظر زفر إلا رحمته قال وقال زفر : إنى لست أناظر أحداً حتى يقول : قد أخطأت . ولكن أناظره حتى يجن قيل وكيف يجن ؟ قال : يقول بما لم يقله أحد .

وقال الصيمرى أيضا أخبرنا عمر بن ابراهيم المقرىء قال حدثنا مكرم بن احمد قال حدثنا احمد بن محمد قال حدثنا مليح بن وكيع قال سمعت أبى يقول : كان زفر شديد الورع حسن القياس قليل الكتابة يحفظ مايكتبه . وقال : أخبرنا عمر بن ابراهيم قال حدثنا مكرم قال حدثنا أبو خازم القاضى حدثنا ابن أبى

---

(١) ومثله عند ابن أبى العوام عن ابى بكر محمد بن جعفر بن اعين البغدادى عن يعقوب بن شيبة بن الصلت (السدوسى) عن سليم بن منصور عن عمرو بن سليمان العطار على حد سواء (ز) .

(٢) هو ابن أخى الحسن بن زياد (ز) .

عمران قال : كان زفر من بلعنبر من بيت شريف منهم وكانت أمه أمة فكان وجهه يشبه وجوه العجم لأمه ، ولسانه يشبه لسان العرب قال لحضر مجلس الحجاج بن أرطاة ـ وكان يتولى القضاء بالكوفة وكان يغلب عليه البذاء وكانت النخع تغمزه فى نسبه ـ فتكلم زفر فأخذ المجلس فملأ قلب الحجاج فالتفت اليه فقال : أما اللسان فلسان عربى ، وأما الوجه فليس وجه عربى .فقال زفر : أما أنا فقد قبلنى قومى . وفى رواية ابن أبى العوام عن الطحاوى عن ابن أبى عمران : (دخل زفر وأبو يوسف على حجاج بن أرطاة فجرت مسألة فقال الحجاج لزفر أما اللسان فعربى وأما الصورة فتدل على غير ذاك فقال له زفر أما أنا فيقبلنى قومى وكان عنبريا من بنى تميم ، وكان الحجاج يطعن فى نسبه فاشتد ذلك عليه وأسكته ثم ناظره أبو يوسف فقطعه فلما قاما قال لحاجبه لا يدخل هذان على بعد).

وقال ابن أبى العوام حدثنا أبو معمر محمد بن احمد بن خزيمة البصرى قال ثنا عباس بن محمد بن حاتم قال سمعت يحيى بن معين يقول : زفر صاحب الرأى ثقة مأمون سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين وذكر له زفر فقال : كان ثقة مأمونا . وجعل يعظم أمره وهذه الدار التى فيها الجبان دارهم قلت فكيف وقع الى البصرة قال : فى ميراث له فتشبث به البصريون وقالوا حدثنا فأقام فيهم (١) . وقال ابن أبى العوام أيضا حدثنى أبو بشر محمد بن احمد بن حماد (الدولابى) قال سمعت العباس ابن محمد الدورى يقول سمعت يحيى بن معين يقول ثم ذكر مثله وزاد قال يحيى ابن معين سمعت أبا نعيم يقول :زفر بن الهذيل من خيار الناس . وأرانى أبو نعيم منزل زفر بالكوفة فى جبانة كندة فى وسط الجبان وجعل أبو نعيم يثنى عليه .

وبه الى أبى بشر عن يعقوب بن اسحاق بن أبى اسرائيل حدثنى محمد بن عبد العزيز ابن أبى رزمة حدثنى أبى ثنا ابراهيم بن المغيرة قال قيل لوكيع بن الجراح تختلف

---

(١) لزفر رحلتان الى البصرة احداهما فى حياة الامام عثمان بن مسلم البتى وثانيتهما بعد وفاة أبى حنيفة فاستقر بها (ز) .

الى زفر ؟! فقال غررتمونا عن أبي حنيفة حتى فات فتريدون أن تغرونا عن زفر حتى نحتاج الى أبي أسيد وأصحابه .

وبه الى أبي بشر سمعت محمد بن مقاتل قال سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين يقول قال لي زفر بن الهذيل : أخرج الي حديثك حتى أغربله لك . وقال الذهبي : زفر ابن الهذيل العنبري أحد الفقهاء والزهاد صدوق ، وثقه غير واحد وابن معين اه.

وقال ابن حجر : ذكره ابن حبان في الثقات وقال : كان متقنا حافظا لم يسلك مسلك صاحبيه وكان أقيس أصحابه وأكثرهم رجوعا الى الحق توفي بالبصرة في ولاية أبي جعفر وقد وقع لنا حديثه بعلو في حديث ابن أبي الهيثم اه. وقد أسقط ابن حجر بعض كلمات من كلام ابن حبان .

وقال ابن عبد البر : كان زفر ذا عقل ودين وفهم وورع وكان ثقة في الحديث اه. وقد ترجم له في (الانتقاء) ومع ذلك كله يوجد من يتكلم فيه وسنذكر ذلك في فصل خاص إن شاء الله تعالى للفت النظر الى مواضع العبرة في كلام المتعنتين.

بعض ماقيل في الموازنة بين زفر وأبي يوسف

قال ابن أبي العوام حدثني محمد بن احمد بن حماد (الدولابي) قال سمعت محمد ابن شجاع الثلجي أبا عبد الله قال سمعت بعض البصريين يقول لما قدم زفر البصرة لقوه فسألوه فأعجبوا به فبلغه أنهم قالوا : ما رأينا مثل زفر في الفقه هو أعلم الناس . فقال زفر وبلغه ذلك : كيف لو رأيتم أبا يوسف اه ؟. وحدث عن الطحاوي عن ابن أبي عمران عن محمد بن سلمة البلخي عن شداد قال سمعت زفر يقول : يعقوب ـ يعني أبا يوسف ـ أفقه من أتى اه .

وبهذا وذاك يكون زفر فضل أبا يوسف على نفسه رحم الله تلك النفوس الطاهرة ما كان لهوى النفس سلطان عليهم ، وكانت خدمتهم في العلم باخلاص لله وفي الله فبارك الله لهم في علومهم . وما غرهم ثناء الناس عليهم بل وقفوا موقف

اتهام النفس نفعنا الله بعلومهم .

ومما يروى فى تفضيل زفر على أبى يوسف ماحدثه ابن أبى العوام عن الطحاوى عن أبى خازم عبد الحميد القاضى أنه سمع بكراً العمى يقول سمعت محمد بن سماعة يقول عن محمد بن الحسن قال : حضرت زفر وأبا يوسف يتناظران فكان ابو يوسف يقهره بكثرة الرواية عن ابى حنيفة والأخبار فاذا صار الى المقايسة قهره زفر اه واسند عن ابى بشر عن احمد بن القاسم حدثنى ابو حفص المروزى عن بشر بن يحيى عن خالد بن صبيح قال : رحلت الى ابى حنيفة فنعى الى فى الطريق فدخلت مسجد الكوفة فاذا الناس كلهم على زفر بن الهذيل وعند أبى يوسف رجلان أو ثلاثة اه . لعل هذا كان فى مبدأ الأمر ، ثم علا شأن أبى يوسف بكثرة الآخذين عنه بحيث لا يلحقه لاحق ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

ومما ذكره ابن أبى العوام بسنده الى الفضل بن دكين : كان زفر يجلس الى اسطوانة وأبو يوسف بحذائه وكان زفر يلبس قلنسوة بيضاء فخمة فكانا يتناظران فى الفقه وكان زفر ركينا جيد اللسان وكان أبو يوسف يضطرب فى مناظرته فربما سمعت زفر يقول لأبى يوسف أين تفر ؟ هذه أبواب كندة مفتحة فخذ فى أيها شئت اه . وأبواب كندة أبواب لقبائل كندة فى الكوفة معروفة ، ووقع فى بعض النسخ (أبواب كثيرة) بدل أبواب كندة والمعنى صحيح فى اللفظين ، ولفظ الصيمرى بسنده الى محمد بن سماعة : (كان زفر يستند الى اسطوانة وكان رجلا ركينا فينتصب فلا يزول وكان أبو يوسف اذا ناظره يكثر الحركة حتى يجىء فيجلس بين يديه او قال بالقرب منه فكان زفر يقول إن هذه أبواب كندة فان اردت أن تفر فخذ فى أيها شئت)

وذكر عن وكيع ما نصه : (لما مات أبو حنيفة أقبل الناس على زفر فما كان يأتى أبا يوسف الا نفر يسير النفسان والثلاثة) . فكأن جو الكوفة صفا لأبى يوسف بعد انتقال زفر الى البصرة ، بالنظر إلى هذه الروايات ، على أنه

ليس بقليل فى الروايات ما يفضل جانب أبى يوسف ، منها كون أبى يوسف أوسع صدراً بالتعليم من زفر ومنها ما ساقه الخطيب بطريق حماد بن أبى حنيفة انه قال: (رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فى مسألة فلا يقول أبو يوسف قولا إلا أفسده زفر ، ولا يقول زفر قولا إلا أفسده أبو يوسف إلى وقت الظهر . فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها على فخذ زفر وقال : لا تطمع فى رياسة ببلدة فيها أبو يوسف . قال وقضى لأبى يوسف على زفر) . وفى معناه ما ذكر الخطيب بسنده عن عبد الرزاق بن همام عن محمد بن عمارة أنه قال : (رأيت أبا يوسف وزفر يوما افتتحا مسألة عند أبى حنيفة من حين طلعت الشمس إلى أن نودى بالظهر . فاذا قضى لأحدهما على الآخر ، قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر حين نودى بالظهر . فقام أبو يوسف ، قال : فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال : لا تطمعن فى الرياسة بأرض يكون هذا بها)

وحضور الاستاذ فى المناظرة بين تلميذيه هكذا ومصارحته لهما بالصواب والخطأ طريقة بديعة فى التدريب على المناظرة فى العلم ومنهج رائع فى شحذ الاذهان وتنمية الملكات ، وعلى كل حال هما كانا كفرسى رهان حتى إن أبا حنيفة قال يوما : (أصحابنا هؤلاء ستة وثلاثون رجلا ، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى ، وأشار إلى أبى يوسف وزفر) كما أخرجه الخطيب فى تاريخه بسنده ، وهذا شهادة من الامام الاعظم فى حقهما أنهما بلغا أعلى درجات الاجتهاد عندما نطق بهذا الحكم ، وساق أيضا بطريق اسماعيل بن حماد : (كان أصحاب أبى حنيفة عشرة : أبو يوسف ، وزفر ، وأسد بن عمرو البجلى ، وعافية الأودى ، وداود الطائى ، والقاسم بن معن المسعودى ، وعلى بن مسهر ، ويحيى بن زكريا ابن أبى زائدة ، وحبان ومندل ابنا على العنزى . ولم يكن فيهم مثل أبى يوسف وزفر) وهؤلاء العشرة هم أكابر أصحاب أبى حنيفة الذين دونوا الفقه معه كما

سبق فى رواية الصيمرى عن الطحاوى .

وفى طبقات على القارى : قال شداد بن حكيم سألت أسد بن عمرو : أبو يوسف أفقه ام زفر؟ فقال زفر اورع . قلت: عن الفقه سألتك فقال : يا شداد بالورع يرتفع الرجل . ومثله فى مناقب الكردرى ، وهذان الامامان العظيمان اللذان هما كفرسى رهان عند اهل النقد يقول عنهما الصيمرى ما رواه عن عبد الله بن محمد عن ابى بكر الدامغانى عن الطحاوى عن ابن ابى عمران عن وليد بن حماد ابن اخى الحسن بن زياد قلت لعمى الحسن بن زياد : رأيت زفر وأبا يوسف عند أبى حنيفة فكيف رأيتهما قال : رأيتهما كعصفورين انقض عليهما البازى اه . وحكى على القارى عن أبى مطيع : زفر حجة الله على الناس فيما بينهم يعملون بقوله وأما ابو يوسف فقد غرته الدنيا بعض الغرور ، ومثله فى مناقب الكردرى ، هكذا يكون كلام الناس فيمن ولى الاحكام ، مع انه لا تصلح أحوال الناس الا بقضاة عدول ، فمن تولى القضاء وعدل فهو القائم بأشق الامرين فيستحق الاجلال ولقد صدق ابن الوردى حيث قال :

ان كل الناس أعداء لمن ولى الاحكام هذا ان عدل

ولذا طال لسان بعض الناس فى أبى يوسف مع ما شهر عنه من العدل فى الاحكام .

وقد حكى جماعة عن محمد بن عبد الله الانصارى انه قال : أكره زفر على ان يلى القضاء فأبى وهدم منزله واختفى مدة ثم خرج واصلح منزله ثم هدم ثانيا واختفى كذلك حتى أعفى عن تولى القضاء رحمه الله .

بعض شيوخ زفر والآخذين عنه

تفقه زفر على الامام الأعظم أبى حنيفة وجالسه أكثر من عشرين سنة ، وفى المناقب الكردرية (٢ - ١٠٤) عن زفر (جالست أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة فلم أر أحداً أنصح وأشفق للناس منه وأنه كان يبذل نفسه لله تعالى

أما عامة النهار فانه كان مشغولا بالمسائل وحلها وتعليمها وما يعرض عليه من النوازل وجوابها فاذا قام من المجلس عاد مريضا أو شيع جنازة أو واسى فقيرا أو واصل أخا أو سعى فى حاجة ، فاذا كان الليل خلا للتلاوة والعبادة والصلاة فكان هذا سبيله حتى توفى) فنعم الشيخ ذلك الشيخ ونعم التلميذ ذلك التلميذ . ومع تفقه زفر عليه أكثر رواية الحديث عنه أيضا . وقد ذكر ابو سعد السمعانى فى الأنساب عند ذكر الجصينى احمد بن بكر بن سيف : (ثقة يروى عن ابى وهب محمد بن مزاحم المروزى عن زفر عن ابى حنيفة كتاب (الآثار) وروى عن غيره فأكثر اه) . وذكر الحاكم فى (١٦٤) من كتابه (معرفة علوم الحديث) « ان لزفر نسختين فى الحديث . احداها رواية ابى وهب والأخرى رواية شداد ابن حكيم » . ومرويات زفر فى الحديث بأسانيده مسرودة فى كثير من الكتب كتاريخى اصبهان لأبى الشيخ وابى نعيم وتاريخ الخطيب وغيرها .

ومن شيوخ زفر فى الحديث سليمان بن مهران الأعمش ، ويحى بن سعيد الانصارى ، ومحمد بن اسحاق صاحب المغازى ، ويحى بن عبد الله التيمى ، واسماعيل بن ابى خالد ، وايوب السختيانى ، وزكريا بن ابى زائدة ، وسعيد بن ابى عروبة . وغيرهم من شيوخ الحديث فى الامصار . وفى سرد اسمائهم طول . وممن اخذ عن زفر عبد الله بن المبارك ، وشقيق بن ابراهيم ، ومحمد بن الحسن ، ووكيع بن الجراح ، وسفيان بن عيينة ، وابو على عبيد الله بن عبد المجيد البصرى ـ من اصحاب البتى الذين انتقلوا إليه . ومحمد بن عبد الله الانصارى القاضى ـ من ولد انس بن مالك ، وهلال بن يحى المعروف بهلال الرأى . والحكم بن ايوب ، وشداد بن حكيم ، والنعمان بن عبد السلام ، ومالك بن فديك ، وابو عاصم النبيل الضحاك بن مخلد ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وابو وهب محمد بن مزاحم المروزى ، وابو نعيم الفضل بن دكين ، وبشر بن القاسم ، وسعيد بن أوس ، وابراهيم بن سليمان ، وحسان بن ابراهيم ، ومسلم بن ابراهيم ، واكثم والد يحي ، والحسن بن الوليد ، ومحمد بن اعين ، وعبد الله بن ابى رزمة ،

ومحمد بن وهب ، وعمر بن الزجاج ، وعبد الله بن داود الخريبي ، وخالد بن الحارث الحافظ ، وعبد الواحد بن زياد وغيرهم من حملة العلم فى الامصار .

وروى الطحاوى والدولابى : ان ابا عاصم النبيل كان يختلف الى زفر ، وكان ثمة رجل آخر يكنى ابا عاصم رث الهيئة يختلف الى زفر ايضا . فجاء ابو عاصم الضحاك بن مخلد يستأذن على زفر ، فخرجت جارية لزفر ، فقالت : من هذا ؟ فقال انا ابو عاصم . فدخلت الى مولاها فقالت : ابو عاصم بالباب . فقال ايهما هو ؟ فقالت النبيل منهمـــا ، فأذنت لى فدخلت . فقال لى زفر يا ابا عاصم قد لقبتك الجارية بلقب لا اراه يفارقك ابدا . لقبتك بالنبيل . فلزمنى هذا اللقب . وقال ابن ابى العوام : حدثنيه محمد بن احمد بن الاشعث قال سمعت يزيد بن سنان يقول سمعت ابا عاصم يقول مثله سواء اه .

وفى المناقب الكردرية عن ابن المبارك انه سمع زفر يقول : (نحن لا نأخذ بالرأى ما دام اثر ، فاذا جاء الاثر تركنا الرأى اه) وعن والد يحيى بن اكثم (رأيت وكيعا يختلف الى زفر بالغدوات والى ابى يوسف بالعشيات ثم ترك ابا يوسف ثم جعل كل اختلافه اليه لانه كان افرغ . وكان يقول : الحمد لله الذى جعلك خلفا لنا عن الامام ولكن لا يذهب عنى حسرة الامام) وعن الفضل ابن دكين : (لما مات الامام لزمت زفر لانه كان أفقه اصحابه واورعهم) وعن الحسين بن الوليد (انه كان اصلب اصحاب ابى حنيفة وادقهم نظرا) .

نماذج من اقوال زفر واجوبته فى المسائل

روى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن محمد بن الحسن بن مرداس عن ابى بكرة العطار عن ابى عاصم النبيل قال قال زفر بن الهذيل : (من قعد قبل وقته ذل) يعنى من جعل لنفسه مجلسا خاصا لنشر العلم قبل أن يتكامل فى العلم فضحته شواهد الامتحان وتكشف جهله بأخطائه فى أجوبة المسائل ، وكم من ناشىء يعتريه الغرور فيظن بنفسه الاستغناء عن أستاذه فيستقل بمجلس فى العلم قبل أوانه ،

ثم يعود الى رشده فيرجع الى ملازمة شيخه.

وبه الى ابن مرداس عن زيد بن أخزم عن أبى عاصم عن زفر فى رجل باع من رجل جارية بألف درهم على أن ينقده الثمن فيما بينه وبين ثلاثة أيام وإلا فلا بيع بينهما قال : البيع فاسد . وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن ابى العباس الايلى عن زيد بن أخزم عن عبد الله بن داود : سألت زفر ابن الهذيل عن قرض الخبز فقال لى : لا يجوز الا وزنا . وروى ابن ابى العوام عن محمد بن عبد الله بن سعيد البصرى عن اسحاق بن ابراهيم الشهيدى عن يحيى بن يمان عن سفيان عن زفر عن قيس بن حبتر قال : مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية كمثل مؤمن آل فرعون . وروى ابن ابى العوام عن الطحاوى عن ابراهيم بن مرزوق عن محمد بن عبد الله الانصارى عن الاشعث الحرانى عن عبد الواحد بن صبرة قال كنت عند القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر . وعندهما اياس بن معاوية فسألهما رجل عن رجل قال لامرأته (أنت طالق إن) . فلم يدريا ما يجيبان به فقالا أفته يا أبا واثلة . فقال إياس : هذا رجل أراد أن يطلق امرأته فلم يفعل . قال الأنصارى : فذكرت ذلك لزفر ابن الهذيل فقال : أخطأ اياس هذا رجل طلق وأراد أن يستثنى فلم يفعل . وروى ابن أبى العوام عن ابى بكر محمد بن هارون بن حسان البرقى عن بكر بن القاسم عن يحيى بن المغيرة القرشى عن سعيد بن أوس .قال: سمعت زفر يقول فى رجل أسقط سجدة من ركعة فاستوى قائما قبل أن يفتتح فاتحة الكتاب : انه يخر ساجدا ثم يعود الى استئناف عمله . وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن بكار بن قتيبة عن هلال بن يحيى قال سألت ابا يوسف عن رجل له مائتا درهم حال عليها حولان قال فى الحول الأول خمسة دراهم ولا شىء عليه فى الحول الثانى فقلت له فان زفر يقول : ان عليه عشرة دراهم . فما حجتك عليه ؟ قال : ما حجتى على رجل يزعم فى مائتى درهم أربعمائة درهم . قال بكار : تكرر الأحوال عليها .

وقال أبو نعيم الاصبهانى فى تاريخ اصبهان فى ترجمة زفر : رجع عن الرأى وأقبل على العبادة اه . لكن هذا وهم منه لأن الذى ترك الرأى وأقبل على العبادة هو صديقه داود الطائى كما سبق وأما زفر نفسه فمن جمع بين الفقه والعبادة ، والرأى المستمد من الكتاب والسنة ليس بشىء يرجع عنه وانما الذى يستحق الهجر هو الرأى المستند الى الهوى دون الكتاب والسنة وأصحابنا براء من ذلك . وزفر عاش فقيها يستعمل الرأى واليقظة فى الفهم ومات فقيها ذا بصارة فى الرأى والفقه ولم يكن يرى أن الرأى والفهم فى دليل الحكم مما يتاب منه .

ومن الدليل على ذلك ما حدثه ابن ابى العوام عن الطحاوى عن ابن ابى عمران عن ابى نعيم الفضل بن دكين : دخلت على زفر وقد احتضر وهو يقول : فى حال لها مهر وفى حال لها ثلث مهر . أهكذا يكون من رجع عن الرأى ! رضى الله عنه .

وساق احمد بن محمد بن سعيد التميمى عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول ـ كما رأيت بخط الحافظ البرزالى : (جاء رجل الى ابى حنيفة . فقال : انى شربت البارحة نبيذا ولا ادرى طلقت امرأتى ام لا ؟ قال : المرأة امرأتك حتى تستيقن انك قد طلقتها . ثم جاء إلى سفيان الثورى فقال : يا أبا عبد الله انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ . قال : اذهب فراجعها فان كانت قد طلقتها لم تضرك المراجعة شيئا . ثم أتى شريك بن عبد الله فقال يا أبا عبد الله انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ قال : اذهب فطلقها ثم راجعها ثم أتى زفر بن الهذيل فقال يا أبا الهذيل إنى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى أطلقت امرأتى أم لا ؟ قال : هل سألت غيرى قال نعم أبو حنيفة ، قال فما قال لك؟ قال المرأة امرأتك حتى تستيقن انك قد طلقتها . قال الصواب ما قال فهل سألت غيره ؟ قال : سفيان الثورى . فما قال لك ؟ قال اذهب فراجعها فان كانت قد

طلقتها فقد راجعتها وان لم تكن طلقتها لم تضرك المراجعة شيئا . قال : ما أحسن هذا . قال فهل سألت غيره ؟ قال : شريك بن عبد الله قال : فما قال لك ؟ قال: اذهب فطلقها ثم راجعها . قال : فضحك زفر ثم قال : أضرب لك مثلا : رجل مر بشعب يسيل ماء فأصاب ثوبه . قال ابو حنيفة : ثوبك طاهر وصلاتك تامة حتى تستيقن أمر الماء ، وقال لك سفيان : اغسله فان يك نجسا فقد طهر وان يك نظيفا زاده نظافة ، وقال لك شريك : اذهب فبل عليه ثم اغسله اه وتلك نماذج من آرائه وأجوبته .

منع زفر العامة من الخوض فى مضايق المباحث الكلامية

أنبأ ابن أبى العوام عن الدولابى عن محمد بن شجاع عن الحسن بن زياد سمعت زفر بن الهذيل وسأله رجل فقال له : القرآن كلام الله . فقال له الرجل أمخلوق هو ؟ فقال له زفر : (لو شغلك فكر فى مسألة أنا فيها أرجو أن ينفعنى الله بعلمها لشغلك ذلك عن ذلك الذى فكرت فيه ، والذى فكرت فيه بلا شك يضرك ، سلم لله عز وجل ما رضى به منك ولا تكلف نفسك مالا تكلف) .

وبه عن الحسن بن زياد وقد قال له رجل من أهل بغداد أكان زفر قياسا فقال له الحسن : وما قولك قياسا ؟ هذا كلام الجهل . كان عالما . فقال الرجل: أكان زفر نظر فى الكلام ؟ فقال سبحان الله ما أسخفك ! تقول لأصحابنا انهم نظروا فى الكلام ، وهم بيوت العلم والفقه . إنما يقال نظر فى الكلام فيمن لا عقل له . وهؤلاء كانوا أعلم بحدود الله عز وجل وبالله من أن يتكلموا فى الكلام الذى تعنى وما كان يهمهم غير الفقه (١) والاقتداء بمن تقدمهم اهـ .

(١) والفقه : معرفة النفس ما لها وما عليها فيشمل باطلاقه العمل والعقيدة والخلق عند أبى حنيفة بل كان يسمى ما يتعلق بتمحيص العقيدة الصحيحة الفقه الاكبر وكان الذى يأباه أصحابه هو الخوض فى مثارات الشبه فى الاعتقاد عند العامة بدون حجة قائمة من الكتاب والسنة والنظر العقلى الصحيح .(ز)

ومعنى ذلك زجر العامة عما لا قبل لهم به من دقائق علم الكلام خوفا عليهم من الزلل والا فهو من أئمة علم أصول الدين جادل الناس فى مسائله فجدلهم ، ويشهد لذلك ما ذكره جمال الدين ابو يعلى أحمد بن مسعود الاصبهانى باسناده عن خالد بن زيد العمرى أنه قال : (كان أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزفر وحماد بن ابى حنيفة قوما قد خصموا بالكلام الناس ، وهم أئمة العلم) كما ذكره صاحب الفتاوى البزازية فى المناقب (١ - ٣٨).

نشر زفر لمذهب أبى حنيفة فى البصرة

روى ابن ابى العوام عن الطحاوى عن أبى خازم القاضى سمعت احمد بن عبدة يقول قدم يوسف بن خالد السمتى البصرة من عند ابى حنيفة ، فكان يأتى عثمان البتى وهو رئيسها وفقيهها فيجاذب اصحابه المسائل ؛ ويذكر لهم خلاف ابى حنيفة اياهم فيضربونه ويسبون ابا حنيفة فلم يزالوا كذلك حتى قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان أعلم بالسياسة منه فكان يأتى حلقة البتى فيسمع مسائلهم فاذا وقف على الأصل الذى بنوا عليه تتبع فروعهم التى فرعوا على ذلك الأصل ، فاذا وقف على تركهم الأصل طالب البتى حتى يلزمه قوله ويبين له خروجه عن أصله فيعود أصحابه شهودا عليه بذلك ، فاذا وقف اصحاب البتى على ذلك واستحسنوا ما كان منه قال لهم : ففى هذا الباب احسن من هذا الأصل ويذكره لهم ويقيم الحجة عليهم فيه ويأتيهم بالدلائل عليه ويطالب البتى بالرجوع اليه ويشهد اصحابه عليه بذلك ثم قال لهم : هذا قول ابى حنيفة. فما مضت الأيام حتى تحولت الحلقة الى زفر وبقى البتى وحده اه — هذا فى رحلة زفر الى البصرة فى حياة امام اهل البصرة عثمان بن مسلم البتى رضى الله عنه .

واما رحلته الى البصرة بعد وفاة البتى وابى حنيفة واستقراره فيها ففيما انبأ الصيمرى عن ابى الحسن العباس بن احمد بن الفضل الهاشمى عن احمد بن محمد

المسكي عن علي بن محمد النخعي عن أبي خازم القاضي عن بكر (العمى) عن هلال بن يحي قال: رحل يوسف بن خالد السمتي من البصرة إلى الكوفة فتفقه عند أبي حنيفة فلما أراد الخروج الى البصرة قال له ابو حنيفة: اذا حضرت الى البصرة فانك تجيء الى قوم قد تقدمت لهم الرياسة فلا تعجل بالقعود عند اسطوانة واتخاذ حلقة ثم تقول قال أبو حنيفة وقال ابو حنيفة فانك اذا فعلت ذلك لم تلبث حتى تقام. قال: فخرج يوسف فأعجبته نفسه وجلس عند اسطوانة وقال: قال ابو حنيفة. قال فأقاموه من المسجد فلم يذكر احد ابا حنيفة حتى قدم زفر البصرة فجعل يجلس عند الشيوخ الذين تقدمت لهم الرياسة فيحتج لأقوالهم بما ليس عندهم فيعجبون من ذلك ثم يقول ها هنا قول آخر احسن من هذا فيذكره ويحتج له ولا يعلم انه قول ابى حنيفة فاذا حسن فى قلوبهم قال: انه قول ابى حنيفة فيقولون هو قول حسن لا نبالى بمن قال به فلم يزل بهم حتى ردهم الى قول ابى حنيفة رضى الله عنه اه.

سوء السياسة من العالم يحرمه نشر العلم واستفادة المجتمع منه ولو اخذ يوسف السمتي بوصايا ابى حنيفة فى معاشرة الناس وسياستهم لما اوذى ولا طعن فى دينه ولا رمى ببدع فظيعة ليس هذا موضع شرحها (١). ووصية ابى حنيفة ليوسف السمتي مدونة فى كتب المناقب وقد قام بتحقيقها الأستاذ الغيور المفضال الشيخ ابراهيم المختار الزيلعي الجبرتي حفظه الله وهى مطبوعة فى مطبعة السيد مصطفى البابى الحلبي، وهى من عيون الوصايا، تعلم القائم بالارشاد بين الناس طرق معاشرتهم وسياستهم لينجح فى ارشادهم وتعليمهم، وقد روى الصيمرى

---

(١) اصعبها ما عنه ابن ابى حاتم لكن ليس عليها مسحة الثبوت، ومثله انى ينكر القيامة والميزان ؟! راجع تهذيب التهذيب، وكان فى حد ذاته عالما جليلا وكفى دليلا على جلالة قدره اخذ الامام الشافعى عنه رغم تقولات المتقولين فيه، واخرج له ابن ماجه وله احاديث كثيرة مخرجة فى تاريخ اصبهان لأبى نعيم وغيره (ز).

لحن عبيد الله بن محمد الأسدي عن أبي بكر الدامغاني عن الطحاوي عن ابن ابي ثور عن سليمان بن عمران عن أسـد : قدم زفر البصرة فدخل مسجدها فانقضت اليه حلق اصحاب التابعين .

زفر فى طبقة المجتهد المطلق فى التحقيق

وان حافظ على انتسابه الى ابى حنيفة

بعد ان علم ان زفر مع ابى يوسف كفرسى رهان فى الاجتهاد لا يبقى وجه للالتفات الى قول من ظن أن زفر فى عداد المجتهدين فى المذهب كما اوضحنا ذلك فى غير موضع . وانما وقع فى ذلك الظن من رأى كثرة تنويه زفر بأقوال الامام الاعظم مع ان ذلك التنويه والموافقة لآرائه انما كان بمعرفته لدليل الحكم كما عرف هولا تقليدا له .

قال ابن ابى العوام حدثنى محمد بن احمد بن حماد سمعت محمـد بن شجاع سمعت ابا عاصم الضحاك بن مخلد يقول سمعت زفر يقول : ما خالفت ابا حنيفة فى قول الا وقد كان ابو حنيفة يقول به . وحدث ابن ابى العوام ايضا عن الطحاوى عن ابن ابى عمران سمعت سوار بن عبد الله العنبرى القاضى - يعنى الحفيد - يقول سمعت أبا عاصم يقـول قال زفر بن الهـذيل : كل اقوالى هذه قد قالها ابو حنيفة قبلى ثم وقف منها على اشياء لم اقف انا عليها فخالفها لما وقف عليه منها وثبتُّ انا عليها . قال احمد بن ابى عمران فأنكرت ذلك ، فأتيت محمد بن شجاع فحدثته بذلك فقال لى : مكانك ثم دخل منزله وخرج وفى يده كتاب فقرأ على منه هذه الحكاية عن ابى عاصم كما سمعتها من سوار العنبرى اه . وفى الكردرية ان يحي بن اكثم روى عن والده انه سمع زفر يقول (لم اجترىء ان اخالف الامام بعد وفاته لأنى اذا خالفته فى حياته وابرزت الدليل واتيت به ألزمنى بالحق الظاهر من ساعته وردنى إلى قوله فأما بعد وفاته فكيف اخالفه ؟ وربما لو كان حيا وحاج لردنى الى قوله) . وهذا

ليس بتقليد له بل سكوت عما لا يعلم دليله واطمئنان الى الدليل وفهم صحيح للدليل فيما يعلم وهو الاجتهاد بعينه ، وأبو حنيفة هو الذى كان ينهى أصحابه عن التقليد ويأمرهم بابداء ما عندهم من الحجج فيناقشهم فيها حتى يستقر الحق فى نصابه ، وكان لاصحابه مقام عظيم فى سرد الدلائل وتحقيق المسائل بل كان ابو حنيفة يقول لا يحل لأحد أن يفتى بقولى ما لم يعلم من اين قلته ، ومع ذلك كله كان لزفر مخالفات فى الأصول والفروع مدونة فى كتب القوم فلا يكون تأدب زفر تجاه استاذه ومحافظته على الانتساب اليه وعرفانه لجميله عليه مما ينزل مقامه فى الاجتهاد المطلق على حدة ذهنه فى قياس المسائل وقوة ضبطه للدلائل وإتقانه للحديث كما اقر بذلك امثال ابن حبان ، وورعه البالغ معروف عند الجميع رضى الله عنه وعن اساتذته واصحابه اجمعين .

ولزفر نحو سبع عشرة مسألة يفتى بها فى المذهب عند نقاد المذهب الف فيها السيد احمد الحموى شارح الأشباه والنظائر رسالة سماها (عقود الدرر فيما يفتى به فى المذهب من اقوال زفر) وشرحها الشيخ عبد الغنى النابلسى . ومحصها ابن عابدين ، وانفرادات زفر فى المسائل مدونة فى منظومة النسفى فى الخلاف وشروحها بسبط . وقد اشار ابو زيد الدبوسى فى تأسيس النظر فى فصل خاص الى مخالفات زفر فى الأصول والفروع كما اشير إلى آرائه الخاصة فى الاصول فى كتب الاصول المبسوطة كشامل الاتقانى وبحر الزركشى وشروح اصول البزدوى خاصة . فان كان شأن المجتهد المطلق الانفراد بمسائل فى الأصول والفروع فها هو زفر له انفرادات فى الناحيتين على ان الموافقة لامام فى الرأى فى بعض مسائل الأصول او الفروع عن علم بأدلتها لا تخل بالاجتهاد المطلق اصلا كما اوضحت ذلك فى كثير من المواضع والله سبحانه اعلم .

كلام أهل النقد فى زفر

قال الذهبي فى الميزان : أحد الفقهاء والزهاد صدوق وثقه غير واحد وابن معين وقال ابن سعد : لم يكن فى الحديث بشيء . اه . لعله يريد قلة حديثه لأنه يقال : فلان لم يكن فى الحديث بشيء ، بمعنى أنه قليل الحديث ـ يعنى فى نظر القائل ـ كما فى الرفع والتكميل لعبد الحى اللكنوى ، وهذا ربما يسلم بالنظر الى علم ابن سعد فقط ، وإلا فزفر على علو منزلته فى الاجتهاد حافظ معروف بالاتقان عند ابن حبان وغـــيره .

وقال ابن حجر فى اللسان : قال ابن أبى حاتم قرىء على عباس الدورى وأنا أسمع سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين وذكر عنده زفر فقال : كان ثقة مأمونا . قال العباس وسمعت يحي ـ وهو ابن معين ـ يقول هو ثقة مأمون . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان متقنا حافظا لم يسلك مسلك صاحبه وكان أقيس أصحاب أبى حنيفة وأكثرهم رجوعا الى الحق توفى بالبصرة فى ولاية أبى جعفر وقد وقع لنا حديثه بعلو فى حديث ابن أبى الهيثم اه . ثم لخص ابن حجر كلام العقيلى وقال : قال أبو موسى محمد بن المثنى ماسمعت عبد الرحمن بن مهدى يحدث عن زفر شيئا قط ، وقال أيضا حدثنا معاذ بن معاذ قال : كنت عند سوار (١) القاضى فجاء الغلام فقال : زفر بالباب فقال : زفر الرأى لاتأذن له ، فانه مبتدع . فقيل له ابن عمك قدم من سفر ولم تأته ومشى اليك فلو اذنت له . فأذن له فما كلمه كلمة حتى خرج .

وقال بشر بن السرى : ترحمت يوما على زفر وانا مع سفيان الثورى فأعرض

---

(١) استمر سوار على قضاء البصرة من سنة ١٣٨ هـ إلى وفاته فى ذى القعدة سنة ١٥٦ هـ كما ذكره ابن حبان ثم خلفه ابنه عبد الله فى قضاء البصرة فلا يتصور تولى زفر قضاء البصرة لافى حياة ابى حنيفة ولا بعد وفاته (ز) .

بوجهه عنى اه . ثم ذكر ابن حجر عن أبى الفتح الأزدى : زفر غير مرضى المذهب والرأى اه . وذكر عن ابن عدى أنه قال الحارث بن مالك إن أول من قدم البصرة برأى أبى حنيفة زفر ، وسوار بن عبد الله على القضاء فاستأذن عليه فحجبه وسعى بى اليه فقلت : أصلحك الله إن زفر رجل من أهل العلم ومن العشيرة قال : أما من العشيرة فنعم . وأما من أهل العلم فلا ؛ فانه أتانا ببدعة : برأى ابى حنيفة . فقلت : انه يحب أن يتزين بمجالسة القاضى . قال فائذن له على ان لا يتكلم معنا فى العلم اه .

فاذا تهرب سوار على ضيق دائرة روايته من كلام زفر معه فى العلم لا يتعجب ؛ لأن مثل الحجاج بن ارطاة القاضى المعدود فى الحفاظ على سعة دائرة روايته كان يحجب زفر عنه تهربا من كلامه معه فى العلم وأما عد رأى ابى حنيفة بدعة فما يرده عمل فقهاء الأمة من الصحابة والتابعين كما تجد مصداق ذلك فى « الفقيه والمتفقه » للخطيب البغدادى و « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ، ومن انكر الفهم فى الكتاب والسنة . ورد النظير الى النظير فهو المبتدع ، كما ذكرنا ذلك فيما علقناه على « النبذ » لابن حزم .

واما حال سوار القاضى هذا ـ وهو الجد لا الحفيد ـ فلم يخرج عنه احد من اصحاب الأصول الستة على تقدم زمنه ، وفيه يقول شعبة : ماتعنى فى طلب العلم وقد ساد (١) . وقال الثورى : ليس بشىء . وذكره العقيلى فى الضعفاء ، وقال ابن سعد : قليل الحديث . وقال الذهبى : روى القليل عن بكر المزنى والحسن اه وسلطان مثله يكون بقوة الحكم لا بقوة العلم ، وقد روى عنه انه لما قيل له : لو نظرت فى شىء من كلام ابى حنيفة وقضاياه . قال : كيف انظر فى كلام رجل لم يؤت الرفق فى دينه ؟. فمن يكون زهده فى الحديث كما سبق يكون زهده فى الفقه ورأى ابى حنيفة واصحابه كما ترى ، على ان زفر حيث حول وجوه المتفقهين

---

(١) وقد ورد : تعلموا قبل ان تسودوا .(ز) .

بالبصرة الى فقه ابى حنيفة كان رؤوس اهل البصرة من طوائف الفقه ؛ لايغتفرون ذلك لزفر ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومثل سوار فى ضيق دائرة علمه وكلام اهل النقد فيه لايتحاكم اليه فى مثل زفر بعد ان تواطأت القلوب مع الألسن عند جمهرة النقاد على الثناء عليه خيراً والشهادة له بالحفظ والاتقان ودقة الفهم وشدة الورع .

واما ابو الفتح الأزدى فلا يكون مرضى المذهب والرأى عنده إلا من كان رافضيا مثله فى الرأى والمذهب ، والحاصل ان الجرح غير المفسر لايلتفت اليه إزاء صرائح التوثيق من اهل الشأن ، واما حكاية عدم رواية ابن مهدى عن زفر فشهادة على النفى وعلى فرض ثبوتها لايخلو ابن مهدى من تأثير الثورى عليه وهو ضيفه النازل عنده المختفى لديه سنين ، كما ذكرت فى لفت اللحظ ، حيث كان عنده بعض انحراف عن ابى حنيفة واصحابه فى بعض الروايات كما هو شأن التنافس بين الأقران على ان رستة عبد الرحمن بن عمر ظنين فى ابن مهدى ، كما ترى ذلك فى الميزان وغيره، وبشر بن السرى ممن اطالوا الكلام فيه ، ولا مانع من ان يستاء الثورى من زفر ، وقد بلغه ماقاله فى جامع سفيان الثورى بالبصرة ، وذلك ماحكاه عكرمة بن عمار انه لما قدم زفر البصرة ونقل اليه جامع سفيان قال : هذا كلامنا ينسب الى غيرنا اه والكلام بين الأقران مما لا يلتفت اليه كثيراً عند اهل النقد ، راجع ماذكرناه فى الثورى فى التأنيب «١١٠».

واما قول احمد بن المعذل :

(إن كنت كاذبة الذى حدثتنى) فعليك إثم ابى حنيفة او زفر
المائلين الى القيـــاس تعمداً والراغبين عن التمسك بالخبر

فنفثة مصدور من تضايقه بالبصرة من اصحاب زفر القائمين بنشر فقه ابى حنيفة هناك نشرا مكتسحا لآراء سائر الطوائف ، لكن الواجب على الهاجى ان يعلم ان الهجو إنما يكب الهاجى فى النار ، من غير ان يضر الأبرياء الأبرار

فى شيء، وأن التحاكم فى المسائل الخلافية الى الحجج الناهضة لا الى الشغب الفارغ، والإقذاع المزرى، فما ذنب زفر؟ حتى يستحل الولوغ فى دمه ودم ابستاذه بهذه الصورة البشعة، ولم يربيا الإثغار، ولا قدما القياس على صحاح الآثار، ولافتحا باب الاسترسال فى نقض الشرع باسم المصلحة، ولا كانا يستصحبان من يغنى لهما فى مجالس العلم، وانت تعلم تفقه ابن المعذل على شيخه القادم الى البصرة ومعه من يغنيه فزهد فيه اهل العلم بالعراق، وهو خلفه هناك فى فقهه فثله لو سكت لكان أستر له ولطائفته. والمصراع الأول مضمن من شعر لحسان رضى الله عنه، واخوه عبد الصمد (١) إذا تحاكمنا اليه فى أخيه نراه يقول فيه:

اضاع الفريضة والسنه … فتاه على الانس والجنه
كأن لنا النار من دونه … وافرده الله بالجنه
وينظر نحوى اذا زرته … بعين حماة الى كنه

وهذا هو قول أخيه فيه.

وقد ذكر ابن عبد البر فى «الانتقاء» ان اباجعفر الطحاوى لما سمع البيتين (لاحمد بن المعذل قال): وددت ان لى حسناتهما واجورهما وعلىّ إثمهما اه.

ومن الناس من لم يكتف بذلك التهجم فى البيتين حتى غير المصراع الثالث وقال: (الواثبين على القياس تمرداً).

وقد عارض كثير من اصحابنا البيتين، واقرب ماقيل فى المعارضة الى الأدب قول الحافظ القاسم بن قطلوبغا:

كذب الذى نسب المآثم للذى … قاس المسائل بالكتاب وبالأثر
إن الكتاب وسنة المختار قد … دلا عليه فدع مقالة من فشر

وادلة القياس من الكتاب والسنة مبسوطة فى كتب الأصول المبسوطة وفى كثير من سائر الكتب كما سبق، سامحهم الله وإيانا بمنه وكرمه ووقانا شر

---

(١) يقول الذهبي فى المشتبه: احمد بن المعذل ـ بفتح الذال المشددة ـ من أئمة المالكية تفقه عليه اسماعيل القاضي. واخوه عبد الصمد بن المعذل شاعر بديع القول اه (ز).

التعصب والتحزب ووفقنا لانزال الناس منازلهم باعدل الموازين . وتغاير العلماء وتحاسدهم مما أدى الى رد اقوال بعضهم فى بعض عند اهل النقد ولا سيما عند اختلاف المذاهب كما هو معروف . فنسأل الله الصون من متابعة الهوى .

وذكر العقيلى عن عبد الرحمن بن محمد عن رستة عن ابن مهدى عن عبد الواحد بن زياد قال : قلت لزفر بن الهذيل (عطلتم حدود الله كلها فقلنا ما حجتكم؟ فقلتم : ادرؤوا الحدود بالشبهات حتى اذا صرتم الى أعظم الحدود وقول النبي صلى الله عليه وسلم : لا يقتل مؤمن بكافر . فعلتم ما نهيتم وتركتم ما أمرتم به . هذا او نحوه من الكلام) ولفظ عبد الواحد فى رواية الطحاوى عن ابن ابى عمران عن ابى عبيد عن ابن مهدى (قلت لزفر يقولون انكم تدرؤون الحدود بالشبهات وقد جئتم الى أعظم الشبهات فأقدمتم عليه قال : وما هو؟ قلت : المسلم يقتل بالكافر . قال فاشهد أنت على رجوعى عن هذا اه) . على أن هناك اثارا عن عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز ومراسيل يؤيد بعضها بعضا ، مع كون المراد بالكافر من لا عهد له بدليل ذكر (ولا ذو عهد فى عهده) أى بكافر غير معاهد فلا يكون دليل المذهب ضعيفا . راجع جواهر الزبيدى (٢ - ١٧٥) وموضع العبرة فى عمل العقيلى هنا تصرفه فى الرواية فقارن بين الروايتين ثم احكم .

هل ولي زفر قضاء البصرة ؟

قال الحافظ عبد القادر القرشي : قال ابو عمر كان زفر ذا عقل ودين وفهم وورع وكان ثقة في الحديث اهـ . وذكر القرشي قبل ذلك عن ابي نعيم : كان زفر ثقة مأمونا ، دخل البصرة في ميراث اخيه فتشبث به اهل البصرة فمنعوه الخروج منها اهـ ثم قال : وتولى قضاء البصرة اهـ وهذا متابعة منه لابن عبد البر حيث قال في الانتقاء :

« كان زفر كبيراً من كبار اصحاب ابي حنيفة وافقههم ، وكان يقال إنه كان احسنهم قياسا ، ولي قضاء البصرة ، فقال له أبو حنيفة : قد علمت ما بيننا وبين اهل البصرة من العداوة والحسد والمنافسة ، وما اظنك تسلم منهم ، فلما قدم البصرة قاضيا اجتمع اليه اهل العلم وجعلوا يناظرونه في الفقه يوما بعد يوم ، فكان إذا رأى منهم قبولا واستحسانا لما يجيء به قال لهم : هذا قول ابي حنيفة فكانوا يقولون: أو يحسن ابو حنيفة هذا ؟ فيقول لهم : نعم واكثر من هذا ، فلم يزل بهم إذا رأى منهم قبولا لما يحتج به عليهم ورضا به وتسليما له قال لهم : هذا قول ابي حنيفة . فيعجبون من ذلك ، فلم تزل حاله معهم على هذا حتى رجع كثير منهم عن بغضه الى محبته ، وإلى القول الحسن فيه بعد ما كانوا عليه من القول السيء فيه ، وكان زفر قد خلف ابا حنيفة في حلقته إذ مات ، ثم خلف بعده ابو يوسف ، ثم بعدهما محمد بن الحسن ، ومات زفر سنة ثمان وخمسين ومائة ، وهو ابن ثمان واربعين سنة اهـ » .

ويخدش في دعوى توليه قضاء البصرة استمرار قضاء سوار بن عبد الله العنبري بالبصرة من سنة ١٣٨ هـ الى وفاته في ذي القعدة سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن حبان وتولي ابنه عبد الله بن سوار قضاء البصرة بعد وفاة ابيه ، فيكون القرشي

وابن عبد البر واهمين في ذلك ، وكان لزفر قرابة بالبصرة فزارهم فى عهدعثمان البتى المتوفى سنة ١٤٣ ﻫ فجرى بينهما ماسبق ذكره بأسانيده ، ثم رحل الى البصرة بمناسبة وفاة أخيه بعد وفاة أبي حنيفة فتمسك أهل البصرة به ، فأقام هناك ينشر العلم الى أن مات بالبصرة وسبق بيان مبلغ ماأوذى به بسبب امتناعه عن قبول القضاء ، رحمه الله وارضاه. ولابن عبدالبر بعض أغلاط فى تراجم المشارقة.

وفاة زفر فى البصرة و كلام اهل العلم فى زهده فى الدنيا

سبق بيان سبب اتصال زفر بأبي حنيفة وملازمته لمجلسه أكثر من عشرين سنة وقد روى الصيمرى عن عبد الله بن محمد الشاهد عن مكرم عن احمد بن محمد عن مليح بن وكيع عن أبيه قال : لما مات أبو حنيفة اقبل الناس على زفر فما كان يأتى ابا يوسف الانفر يسير : النفسان والثلاثة . وكان زفر يكنى بأبي خالد وبأبي الهذيل وكان من اهل اصبهان ومات اخوه فتزوج بعده بامرأة اخيه فلما احتضر دخل عليه ابو يوسف وغيره فقالوا له ألا توصى ياأبا الهذيل فقال : هذا المتاع الذى ترونه لهذه المرأة ، وهذه الثلاثة الآلاف الدرهم هى لولد أخى وليس لأحد على شيء ولا لى على أحد شيء ، وكان زفر شديد العبادة والاجتهاد .

وقال الصيمرى اخبرنا عمر بن ابراهيم عن مكرم عن محمد بن احمد بن يعقوب السدوسى قال حدثنا جدى ـ وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت المالكى ـ قال: زفر بن الهذيل عنبرى من أنفسهم يكنى أبا الهذيل ، وكان قد سمع الحديث ونظر فى الرأى فغلب عليه ، ونسب اليه ومات بالبصرة ، واوصى الى خالد بن الحارث (الحافظ) وعبد الواحد بن زياد ، وكان ابوه الهذيل يلى الأعمال ومات وهو والى اصبهان ، وكان اخوه صباح بن الهذيل على صدقة بنى تميم .وزفر هو زوج اخت خالد بن الحارث ومات فى اول خلافة المهدى سنة ثمان وخمسين ومائة اه .

وكلام يعقوب بن شيبة هذا لاغبار عليه إلا ان جعل وفاته فى اول خلافة المهدى فيه وقفة لأنه نص ابن خلكان وغيره على ان وفاته فى شعبان من سنة

١٥٨ هـ فتكون وفاته قبل وفاة المنصور بأربعة اشهر وسبق ان نقلنا من ثقات ابن حبان وفاته فى ولاية ابى جعفر المنصور ، وقال احمد بن خلف وعبد الباقى ابن قانع فى رواية المرزبانى عند الصيمرى ان زفر مات سنة ١٥٨ هـ وفيها مات المنصور واسرائيل بن يونس . وحكى أبو خازم عن بكر العمى أن زفر توفى سنة ١٥٨ هـ وهو ابن ثمان واربعين سنة كما ذكره ابن أبى العوام .

وعن بشر بن القاسم سمعت زفر يقول : لا أخاف بعد موتى شيئا أخاف عليه الحساب فلما مات قوم ما فى بيته فلم يبلغ ثلاثة دراهم ، ولما احتضر قال له أبو يوسف وغيره أوص فقال هذا المتاع لزوجتى وهذه الثلاثة الآلاف الدرهم لولد أخى ـ وكان تزوج امرأة أخيه بعد وفاته ـ وأما انا فليس لى على أحد شىء ولا لأحد على شىء كما فى مفتاح السعادة والمناقب الكردرية ، وعن ابراهيم بن سليمان قال : كنا إذا جالسنا زفر لم نقدر أن نذكر الدنيا بين يديه فاذا ذكرها واحد منا قام من المجلس وتركه وكنا نتحدث فيما بيننا ان الخوف قتله ، كما فى الكردرية .

وقال النواوى فى تهذيب الاسماء : كان جامعا بين العلم والعبادة وكان صاحب حديث ثم غلب عليه الرأى قال ابن أبى حاتم : روى عن الحجاج بن أرطاة وروى عنه ابو نعيم (الفضل بن دكين) وحسان بن ابراهيم وأكثم بن محمد (والد يحيى) قال ابو نعيم كان زفر ثقة مأمونا . دخل البصرة فى ميراث أخيه فتشبث به أهل البصرة فمنعوه الخروج منها قال يحي بن معين : زفر صاحب الرأى ثقة مأمون قال ابن قتيبة : توفى بالبصرة اهـ .

ومما قيل فى مدحه رضى الله عنه :

قوس القياس به كانت موترة ... ما عاش والآن أضحت مالها وتر
لقد حوى فى قياس الفقه مرتبة ... علياء قد قصرت من دونها الفكر
قياسه قد صفا فى بحر خاطره ... وحاسدوه لشوم الخلق قد كدروا
غدا لكسر قياس الناس جابره ... وهم لحيدهم حقا قد انكسروا

عيونهم فى الليالى بالكرى كحلت   وعينه كحلها فى ليله السهر
أنى يساويه فى فقه له أحد ؟!   هل يستوى الذهب الابريز والحجر ؟!

وبهذا القدر نكتفى فى بيان سيرة هذا الامام العظيم رفع الله مقامه فى الجنة ونفع بعلومه الأمة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

قد فرغ الفقير اليه تعالى محمد زاهد بن الحسن بن على الكوثرى من تحرير هذه الرسالة بتوفيق الله تعالى عصر يوم الأحد السابع عشر من شهر رجب الفرد من سنة ١٣٦٨ هـ غفر الله لى ولوالدى ولمشايخى ولسائر المسلمين ونفعنا ببركات العلماء العاملين .

وكان ختام طبعها بتوفيق الله سبحانه فى ٢٧ رجب سنة ١٣٦٨ هـ
فى مطبعة الأنوار ، بنهاية شارع بيبرس بالحمزاوى بالقاهرة

تطلب من

مكتبة الخانجي

شارع عبد العزيز